

التوسير ونقده للقراءات الإنسانية في فلسفة ماركس

د. نوال بورحلة، استاذة محاضرة أ

قسم الفلسفة، جامعة الجزائر 2

يرى التوسير إن فلسفة ماركس فلسفة علمية وليست فلسفة إنسية ؛ إن جهل المثقفين الفرنسيين وغيرهم حسب التوسير بحقيقة البعد العلمي لفكر ماركس هو الذي جعل الكثير منهم يعتبرون فلسفة ماركس فلسفة إنسية وقد علّل التوسير ذلك بجهلهم للقطيعة التي حدثت في فكر ماركس والتي ولدت مرحلتين متباينتين مرحلة ما قبل القطيعة ، وهي ما يوصف بأنها المرحلة التي تأثر بها ماركس بالفكر الإنسي المتجسد في فكر كانط وفخته وفيورباخ ، ومرحلة ما بعد القطيعة ، وهي مرحلة النضج وفيها أسس ماركس حسب التوسير المادية التاريخية أو العلم الجديد. إن جهل القطيعة في فكر ماركس كما يرى التوسير هو الذي أوقع فلسفة ماركس في القراءات الخاطئة ولاسيما القراءة الإنسانية. تميزت هذه القراءات في نظر "التوسير" بالسطحية والسذاجة الأمر الذي أدى إلى عدم التوصل إلى ما يميز فلسفة ماركس. وتعد القراءة الإنسانية لفلسفة ماركس إحدى القراءات التي تناولها "التوسير" بالنقد والتحليل.

وحرى بنا قبل التطرق إلى نقد التوسير للقراءة الإنسانية الإشارة إلى مفهوم الإنسانية :

لم يظهر مصطلح الإنسانية Humanisme في الثقافة الغربية إلا في أوائل القرن التاسع عشر وبالتحديد سنة 1808م وقد استعمل هذا المصطلح للدلالة على نظام تربوي وعلى معنى تاريخي وفلسفي.

أ- النظام التعليمي التربوي : ويقصد بهذه العبارة أن هدف مصطلح الإنسانية هو تكوين الشباب وتلقين السلوك الحسن الذي من شأنه أن يرفع من

قيمة الإنسان وإمكاناته. وكان المراد من هذا المصطلح هو تحقيق المضمون التربوي لهذه العبارة إن الإنسان لا يولد إنساناً بل يصير كذلك⁽¹⁾. لقد رأت النزعة الإنسانية ضرورة تدريب الطفل منذ نعومة أظافره وتربيته بشكل متواصل وتدرجي على المثال النمذجي الأعلى للإنسان ولا يتأتى تحقيق النموذج الأعلى للإنسان حسب هذا النظام إلا بعد تخليص الطفل من الحالة الطبيعية التي هي حالة الإنسان المتوحش، أي نقل الطفل عن طريق التربية والتهذيب من حالة الطبيعية إلى حالة الثقافة التي تعتبر أرقى مرحلة، لأن الوسط المناسب للإنسان حسب هذا النموذج التعليمي هو الوسط الثقافي وليس الوسط الطبيعي⁽²⁾.

ب. المعنى التاريخي :

المعنى التاريخي: كان يطلق هذا المفهوم على تيار فكري وثقافي ظهر في إيطاليا ثم عمّ سائر أوروبا. وكان اهتمام هذا التيار منصبا على البحث في ثقافات وحضارات القدماء (الرومانية واليونانية) من أجل تكوين تصور عن الإنسان يتخذ نموذجا يقتدي به في الحاضر، ضمن هذا الإطار أصبحت عبارة المفكر الإنسي تدل على الباحث الشغوف بتحقيق التراث القديم وإحيائه، وذلك الفنان تحفزه في أعماله رغبة البحث عن نموذج الكمال الإنساني. وعلى هذا الأساس تعرف الحركة الإنسانية على أنها حركة تحرير الإنسان عن طريق اكتشاف القيم الأخلاقية والفكرية⁽³⁾.

وما يمكن إضافته كملاحظة بخصوص النزعة الإنسانية أنها نشأت ضمن سياق من الفنى المادي والتطورات الاقتصادية والاكتشافات الجغرافية بناء على هذا يمكن أن نموضع انبثاق الحركة الإنسانية التي تضع ثقته في الإنسان وتتفاعل بقدراته وإمكاناته. إن الإنسان عندما ينتج ماديا ويهيمن على العالم يتفاعل بالحياة ويشعر بالنشوة والإعجاب بنفسه، وعندما يفتقر ويفشل يزهد في الحياة. وبهذا المعنى يمكن القول أن لكل نهضة روحية أو فكرية دعامة مادية تحميها وتعطيها الدافع اللازم لكي تقوى وتنتشر، وهذا ينطبق على الحركة الإنسانية التي وجدت في التقدم المادي سندا لها.

ج- المعنى الفلسفي: هو ذلك التصور الذي يجعل من الإنسان القيمة العليا ومن هذا المنظور تكون الإنسانية هي كل فلسفة تتطلق من الذات، أي الإنسان وتتخذها محورا لتفكيرها وغايتها وقيمتها العليا. ولا يتحقق هذا الأمر كما يرى "لاند" إلا باستبعاد كل ما من شأنه أن يحط من قيمة الإنسان⁽⁴⁾.

تهتم النزعة الإنسانية بالإنسان وتخصه بمكانة هامة إيماناً منها بأن المبادرات البشرية تسهم في صناعة التاريخ الذي لا يتخذ اتجاهاً ومعنى إلا إذا كان مرتبطاً بفعاليات وأهداف إنسانية. كما تؤكد هذه النزعة أولوية الوعي والإرادة في كل مشروع تأسيسي والتصدي لكل ما يسيء إلى الإنسان، كما تحرص هذه النزعة على تقديم الإنسان من خلال ثلاث صور:

أ- الصورة الأولى : الإنسان الفاعل

ميزة الإنسان الأولى تتجلى في مقدرته على أن يقول "أنا" ويشترط لتحقيق هذا أن يكون الإنسان حراً، قادراً على اتخاذ قراراته بمفرده دون أن يخضع لأية وصاية دينية كانت أو سياسية، ومن وجهة النظر هذه ترى النزعة الإنسانية أنه لا يمكن الحديث عن إنسانية ما إلا بالنسبة إلى الكائن الذي يستطيع أن يقول "أنا"، وبهذه الطريقة يتمكن الإنسان من صناعة تاريخه ومصيره خاصين به.

ب- الصورة الثانية : الإنسان الروح

إن هذه الميزة تعود إلى التراث الأرسطوطاليسي الذي كان يحدد الإنسان كحيوان عاقل يميزه عن باقي الكائنات وليجعله من حيث تمتعه بالروح شيئاً مناقضاً للمادة. وتعود هذه الفكرة " الإنسان الروح" مرتكزا أساسيا في الفلسفة الإنسانية.

ج- الصورة الثالثة: الإنسان المشاعر

حرصت النزعة الإنسانية على تقديم الإنسان بوصفه يحمل رغبات وأملا وطموحات يسعى إلى تحقيقها في الواقع. فالإنسان ضمن هذه الرؤية هو شعور

وإحساس، وهو روح تملك حسا جماليا رومانسيان وهو شعور يجعله يتوق إلى الجمال وإلى الحرية حتى التحليق في الخيال⁽⁵⁾.

بناء على ما سبق ذكره تعتبر النزعة الإنسانية الإنسان محور هذا العالم إذ يحتل ضمن تصورهما مكانة ممتازة وحفاظا على هذه المكانة . تسعى إلى العمل على تحسين وضعيته والاهتمام به باعتباره محرك التاريخ وغاية كل تصور وبناء على مضمون الإنسانية ترى القراءات الإنسانية لفلسفة ماركس، أن فلسفة هذا الأخير فلسفة إنسية وأن الإنسان هو جوهر فلسفة ماركس كما تبين هذه القراءات أن ماركس قد أعطى في مؤلفاته اهتماما كبيرا للإنسان باعتباره- الإنسان- محرك وصانع التاريخ، غير أن القراءات الإنسانية لفلسفة ماركس من وجهة نظر "التوسير" هي قراءات خاطئة، تدل على جهل عميق بمؤلفات ماركس ولا سيما مؤلفه رأس المال. بالإضافة إلى هذا تخفي هذه القراءات أغراضا إيديولوجية خفية. ويرى "التوسير" أن المطلع على فلسفة ماركس يلاحظ أن ماركس قد تولى في مرحلة متأخرة عن فكرة الإنسان.

استهل "التوسير" نقده للقراءات الإنسانية في فلسفة ماركس بالقراءة الإنسانية الاشتراكية التي ترى أن تقدم الإنسان مرهون بمدى القدرة على تحسين والاهتمام بالإنسان، وعليه عملت هذه القراءة الاشتراكية على إبراز الطابع الإنسي لفلسفة ماركس متخذة من هذه الفلسفة السند النظري لتوجهها. وقد برز هذا التوجه الجديد في نظر "التوسير" بتأثير من البرجوازية التي حققت نجاحات هامة في ميادين الأدب والعلم والفلسفة. ومن أجل تحقيق ما وصلت إليه البرجوازية عمد دعاة النزعة الإنسانية الاشتراكية على تحسين صورة الإنسان في شعاراتها وبتجلى هذا تحول مبدأ الاشتراكية "الكل حسب عمله" ومبدأ الشيوعية "الكل حسب حاجاته" إلى شعارات جديدة تحمل دلالة إنسية، مثل الحرية، والحرية الفرد، وكرامة الإنسان، واحترام المساواة⁽⁶⁾. وقد وجدت هذه النزعة السند النظري لهذا الطرح في مؤلفات ماركس الشاب، خاصة في مخطوطات 1844 والتي كان فيها ماركس متأثرا بالنزعة الإنسانية، كما وجد

هذا التوجه ما يبرره لدى " ايفان فرولوف " ⁽⁷⁾ الذي اعتبر البعد الإنسي مطلباً ضرورياً بالنسبة إلى الحياة لأنه أفضل معبر عن مطالب الإنسانية، ومن هذا المنطلق يمكن أن يحل البعد الإنسي محل الصراع الطبقي الذي أصبح عاجزاً عن تحقيق آمال الإنسانية ومسايرة التقدم. إن الصراع الطبقي حسب " فرولوف " مسألة جوهرية بالنسبة إلى ماركس وبالنسبة إلى التطور الاجتماعي في المجتمعات المقسمة إلى طبقات لأن العمل على التحرر واسترجاع الكرامة الوطنية وحقوق الجماهير أمر واجب ومتوقف على الصراع لكن هذا الأخير لم يعد يحقق مطالب التحرر والتقدم خاصة بعد ظهور أسلحة متطورة نتيجة التقدم العلمي، وخوفاً من الفناء الشامل للإنسانية ووضع حد للصراع الطبقي.

وعليه رأت النزعة الإنسية الاشتراكية ضرورة تقديم المصلحة الإنسانية على الصراع الطبقي، لأن في هذا التقدم رؤية جديدة إلى الإنسان ومستقبله، ولا يتحقق هذا في نظر هذه النزعة إلا بتجاوز الصراعات والخلافات الموجودة بين طبقات الشعب، وإحلال السلام والأمن حيث يكون والاهتمام بالدرجة الأولى بالإنسان لأنه الشرط الأساسي لتحقيق التقدم وفي هذا السياق يقول " فرولوف " مبرراً موقف النزعة الإنسية من التوجه الجديد:

"إن الطبقات والصراع الطبقي ظواهر انتقالية وستختفي حين يأتي الوقت بينما وجدت المصلحة الإنسانية العامة. ومصلحة الجنس البشري بشكل عام وسوف تستمر في الوجود إلى الأبد." ⁽⁸⁾

وبهذا التوجه الجديد ادعت هذه النزعة أنها حققت نجاحاً كبيراً وكانت حجة في ذلك:

أولاً : إن فلسفة ماركس منفتحة على العالم، فهي فلسفة ديناميكية متجددة، تطمح إلى الحوار دوماً مع ثقافات مختلفة في العالم، وأخذ كل ما هو أفضل للإنسانية، وكل ما يرفع من قيم الوجود الإنساني وفي هذا يقول:

"يجبر التفكير الجديد المرء على أن يتخذ موقفاً جديداً لدرجة كبيرة من التفاؤل بين الفلسفة الماركسية وغيرها من الفلسفات الحديثة. ينبغي علينا

أن نلعب دوراً أكثر نشاطاً في إقامة صلات مع الاتجاهات المختلفة في الفكر الفلسفي والاجتماعي تأكيد المثل الإنسانية من أجل المساواة الاجتماعية والعدالة والبقاء الإنساني⁽⁹⁾.

ثانياً: إن تحقيق تنبؤ ماركس بالشيوعية في مخطوطات 1844 مرهون بتحقيق ماهية الإنسان من طرف الإنسان، وهو ذلك الحلم الأبدي للإنسانية الاشتراكية⁽¹⁰⁾. ومن هنا يتجلى البعد الإنسي في فكر ماركس كما ترى النزعة الإنسانية.

تعتبر هذه القراءة في نظر "التوسير" قراءة خاطئة وتحريفاً لفلسفة ماركس، لأنها حجبت مسألة جوهرية في الفلسفة، وهي الصراع الطبقي الذي يعد محرك التاريخ. انطلاقاً من هذه الفكرة فإن تحرير الإنسان من وجهة نظر "التوسير" لا يتم إلا بالصراع الطبقي. ويكمن خطأ هذه النزعة حسب "التوسير" في أنها ركزت على تحرير، الإنسان وأهملت كيفية تحقيق هذا التحرير إذ لا يمكن تحرير الإنسان دون تحرير الطبقة الكادحة عن طريق الصراع الطبقي. وفي هذا يقول: "إن نهاية استغلال الإنسان كان يعني نهاية الاستغلال الطبقي، وأن تحرير الإنسان كان يعني دوماً تحرير الطبقة العمالية الكادحة"⁽¹¹⁾. ويخلص "التوسير" إلى القول بأن مسألة تحرير الإنسان مسألة عرضية في فلسفة ماركس ارتبطت بالمرحلة الإيديولوجية من تفكيره، والاقتصار على هذه المرحلة كما هو الحال بالنسبة إلى النزعة الاشتراكية أخفى الجوانب العلمية من فلسفة ماركس التي تكمن أساساً في مؤلفات النضج وأهمها كتاب رأس المال على وجه الخصوص.

لقد اتخذ "التوسير" من القراءات الإنسية الواقعية المتمثلة في الفيلسوف جورج سويران "هدفاً لنقد البعد الإنسي في فلسفة ماركس. اعتبر "سويران" أن فلسفة ماركس فلسفة إنسية واقعية، وما يؤكد هذه المسألة أن ماركس قد تجاوز الفلسفة المثالية الألمانية التي كانت تشكل وعيه الفلسفي القديم، لكن لم يؤسس فلسفة لا إنسية وإنما فلسفة إنسية واقعية محورها الأساسي هو

الإنسان وواقعه ودوره في المجتمع. وتوضيحا لهذه الفكرة رأى "سوبران" أن الإنسان لا يستطيع في نظر ماركس تحقيق إنسانيته إلا عندما يجعل الواقع الذي يعيش فيه تحت إرادته، ولا يتأتى له ذلك إلا بالعمل الذي يسمح له بتحويل الطبيعة وتسخيرها له، وبهذا يستطيع تنمية إنتاجه المادي ومتطلباته انطلاقا من الواقع⁽¹²⁾. إن الإنسان في فلسفة ماركس هو محور هذه الفلسفة وهو العنصر الذي أعطها بعدا إنسيا. ومن المهم أن نوضح أن الإنسان الذي تحدث عنه "سوبران" حسب ماركس هو الإنسان العيني (Concret)، الواقعي (Réel). ويلفت انتباهنا بخصوص هذه المسألة إلى أن إنسية ماركس الواقعية حسب "سوبران" تختلف عن إنسية التي نادى بها الفلسفة المثالية، ويكمن الاختلاف في أن الفلسفة المثالية اتخذت طابعا تأمليا تجريديا حين ركزت على الوعي والروح وأهملت البعد الواقعي الذي انطلق منه ماركس. وفي هذا الصدد يقول "سوبران" "على لسان ماركس:

"على خلاف الفلسفة الماركسية التي تنزل من السماء إلى الأرض نحن نرتقي من الأرض إلى السماء، وبعبارة أخرى نحن لا ننطلق هنا مما يقوله الناس أو يتخيلونه أو يتمثلونه..إننا ننطلق من أساس في نشاطاتهم الحقيقي"⁽¹³⁾.

لم يكتف "سوبران" بالتأكيد على أن فلسفة "ماركس" إنسية واقعية وإنما ذهب إلى أن إنسية ماركس لا تقتصر على مرحلة الشباب دون النضج وإنما تمتد إليها لأن ماركس كان إنسيا طيلة حياته بدءا من مخططات 1844 إلى كتاب رأس المال⁽¹⁴⁾ ومن هذا المنطلق فإن فكر ماركس يشكل وحده عضوية نمت تدريجيا وبصفة متواصلة من دون قطائع، وعليه فإن كل محاولة فيما يرى "سوبران" لتقسيم فلسفة ماركس إلى مراحل متباينة يكون مآلها الفشل.

لم يكن رد "التوسير" على الإنسية الاشتراكية كافيا بالنسبة إليه لوضع حد للهاجس الذي كان ينتابه إزاء القراءات الإنسية الخاطئة، ذلك أننا نجده ينتقد مرة أخرى تأويلا إنسيا جديدا ساهم بقدر كبير في تحريف فلسفة "ماركس" ويعني به "التوسير" النزعة الإنسية الواقعية. لقد اتهم "التوسير" هذه

النزعة بتجاهل القطيعة التي أحدثها ماركس في فكره مع الفلسفة الإنسانية. والنتيجة التي تترتب على هذا التجاهل هو عدم إدراك المفاهيم الجديدة لماركس التي توحي بظهور إشكالية علمية جديدة، وعليه فإن ماركس حسب "التوسير" لم يذكر مصطلح الواقع في المرحلة العلمية من تفكيره، وإنما ذكر مفاهيم مغايرة مثل: "نمط الإنتاج" "وقوى الإنتاج" "وعلاقات الإنتاج". إن تجاهل النزعة الإنسانية المفاهيم الجديدة لفكر ماركس أوقعها في مفارقة حيث جعلت من مفهوم الواقع الذي هو مفهوم ثانوي بالنسبة إلى ماركس حسب ألتوسير، والذي يعبر عن مرحلة إيديولوجية من تفكيره مفهوما أساسيا. بينما جعلت من المفاهيم التي اكتشفها ماركس والتي تعبر عن المرحلة العلمية من تفكيره مفاهيم ثانوية.

يدل هذا حسب "التوسير" على أن النزعة الإنسانية الواقعية لا تعي فلسفة ماركس ولا التحولات التي حدثت في تفكيره والنتيجة التي تترتب على ذلك وقوع هذه النزعة في التأويل الخاطئ لفلسفة ماركس. لقد تساءل ألتوسير في نهاية نقده لهذه النزعة عن مصير فلسفة ماركس، إذا أصّر الشيوعيون على التمسك بالمفاهيم الإنسانية الإيديولوجية كمفهوم "الإنسان والواقع" التي تحول دون الوصول إلى معرفة فلسفة ماركس معرفة علمية حقيقية. ولا تتحقق هذه الأخيرة في نظر "التوسير" إلا بالرجوع إلى النموذج الأصلي، أي إلى ماركس نفسه الذي يتميز ببعد علمي واضح.

يوصل "التوسير" في نقده دحض القراءات لفكر ماركس، وقد تناول هذه المرة بالنقد النزعة الإنسانية التاريخية المتمثلة في الفيلسوف "جون لويس". لقد خص "جون لويس" ⁽¹⁵⁾ "مجلة الماركسية اليوم" ⁽¹⁶⁾ بمقالتين حول كتابات "التوسير" سماهما "حالة التوسير" Cas d'Althusser "كان يتلخص مضمونها في أن فلسفة ماركس فلسفة إنسية وأن ما ادعاه التوسير من وجود قطيعة في فكر ماركس إدعاء خاطئ. وقد وجد التوسير في الرد على ما كتبه "جون لويس" فرصة لتأكيد لا إنسية ماركس. لذلك تقدم بالشكر الجليل لمجلة الماركسية

ليوم للمكانة التي توليها للبحوث الفلسفية ونشر مقالات "جون لويس" حول كتاباته. لقد اتهم "جون لويس" -حسب التوسير- تجاهله كيفية تشكل الوعي الفلسفي لماركس وفي هذا يقول "التوسير" : إن جون لويس يعاتبني لسببين، السبب الأول : أنني أجهل فلسفة ماركس والسبب الثاني: جهلي بتاريخ تكون فكر "ماركس" ⁽¹⁷⁾ وتتلخص الأطروحات التي تثبت جهل "التوسير" بفلسفة ماركس فيما يلي:

الأطروحة الأولى: الإنسان يصنع التاريخ (L'homme Fait L'histoire)

الأطروحة الثانية : الإنسان يصنع التاريخ بتجاوزه (L'homme Fait L'histoire en Transcendant L'histoire)

الأطروحة الثالثة: الإنسان لا يعرف إلا ما يفعله ⁽¹⁸⁾ (L'homme ne connaît que se qu'il fait)

إن ما يمكن فهمه من هذه الأطروحات ⁽¹⁹⁾ "لجون لويس" أن الإنسان هو محرك التاريخ في فلسفة "ماركس"، ودون الإنسان لا يمكن صناعة التاريخ. ومادام الإنسان صانع ومحرك التاريخ فهو يعمل في الوقت ذاته على تغييره ولا يتحقق هذا إلا عن طريق عملية التجاوز، أي تجاوز ما هو موجود بواسطة النفي La négation. ويسوق لنا "جون لويس" مثلاً مفاده أن القيام بالثورة يتطلب التجاوز، أي نفي التاريخ الموجود الذي هو بدوره نفي التاريخ الذي وجد سابقاً. انطلاقاً من هذا فإن الإنسان لا يعرف إلا ما يصنع، وهنا إشارة إلى ارتباط أفعال الإنسان بالوعي والقصدية، ومن ثمة فإن صناعة التاريخ تتم بطريقة واعية تهدف إلى تحقيق غاية إنسانية.

وقد استند "جون لويس" حسب "التوسير" إلى هذه الأطروحات لتأكيد البعد الإنساني لفلسفة "ماركس" كما اتخذها منطلقاً لقناعته بأن الإنسان هو الذي يصنع التاريخ بتغييره.

تمثل هذه الأطروحات بالنسبة إلى التوسير نقطة ضعف وغموض في فهم "جون لويس" لفلسفة ماركس عموماً ولموقفه من الإنسان على وجه الخصوص لأن هذه الأطروحات تكتفي بالوصف ولا تستند إلى أي معطى علمي، أي أنها تقتصر على الملاحظة المباشرة للواقع. ويعتبر هذا العمل بالنسبة إلى "التوسير" غير كاف للوصول إلى الحقيقة التي تتطلب حسبه لبرهنة. لم يتوقف "التوسير" عند حد اعتبار أطروحات "جون لويس" غامضة وإنما أرشدنا إلى سبب الغموض الذي يكتنف أطروحاته، ألا وهو البعد الإنسي في عبارة "الإنسان يصنع التاريخ بتغييره" وذلك أن الإنسان في هذه الأطروحة اكتسبت صفات متعددة كالقدرة على التجاوز والتغيير والقصدية في الأفعال⁽²⁰⁾ كما يرجع سبب الغموض إلى كلمة "صنع" في أطروحة الإنسان يصنع التاريخ "بتغييره لأن" جون لويس "حسب التوسير" يعتمد السكوت عن الأدوات التي يتم بها صناعة التاريخ، لأنه لو تكلم جون لويس عن الأدوات فهو مجبر على الحديث عن الصراع الطبقي الذي هو محرك التاريخ.

وقد تبنى "التوسير" في محاولة لدحض أطروحات "جون لويس" الطريقة نفسها التي استند إليها جون لويس لتأسيس أطروحاته فجعل أطروحات الفلسفة الماركسية اللينينية بجانب أطروحات جون لويس قصد المقارنة وإصدار الحكم.

الأطروحة الأولى :

أطروحة جون لويس: "الإنسان هو الذي يصنع التاريخ"

أطروحة الماركسية اللينينية: الجماهير هي التي تصنع التاريخ.

رأى "التوسير" أن أطروحة جون لويس "أن الإنسان هو الذي يصنع التاريخ" (Le sent Les Masses Qui Font L'Histoire) تحمل بعد إنساناً وقد قابلها بأطروحة الماركسية اللينينية "الجماهير هي التي تصنع التاريخ" وبهذا المعنى فإن محرك التاريخ ليس الإنسان وإنما الطبقة الكادحة المستغلة في النظام الرأسمالي⁽²¹⁾

الأطروحة الثانية :

أطروحة جون لويس " الإنسان يصنع التاريخ بتغييره "

أطروحة الماركسية اللينينية " الصراع الطبقي هو محرك التاريخ. (La Lutte Des Classe Est Le Moteur De L'Histoire. أطروحة البيان الشيوعي⁽²²⁾)
لقد تفتن "التوسير إلى أن الطرح الإنسي بدأ يلف الأطروحة الماركسية اللينينية⁽²³⁾" الجماهير التي تصنع التاريخ " حسب ما جاء في الأطروحة الأولى. وقد توصل إلى ذلك بعد أن طرح سؤال مفاده، من يصنع التاريخ ؟ وتلخصت أجابته في أن التاريخ يحتاج دوما إلى ذات تصنعه سواء سميت هذه " الذات " إنسانا كما يرى "جون لويس" أو سميت "جماهيراً" كما ترى الماركسية اللينينية. ومنه تنبّه "التوسير" إلى أن أطروحته تميل إلى إثبات موقف خصمه " جون لوسي" الذي هو بصدد نقده .

وللخروج من البعد الإنسي الذي تفتن إلى وجوده "التوسير" في مفهوم الجماهير استعان بالبيان الشيوعي الذي يتبنى فكرة الصراع الطبقي هو محرك التاريخ. وبهذه الطريقة يكون التوسير قد قضى على التأويلات الإنسية "لجون لويس" وخلص فلسفة ماركس من كل توجه إنسي. أي كل ما يحمل دلالة إنسانية مثالية في هذه الفلسفة ولم يكن هذا ممكناً إلا بإبراز مفهومين أساسيان في فلسفة ماركس " وهما الصراع الطبقي ومحرك التاريخ " فالصراع الطبقي يتحرك التاريخ . لقد أشار " التوسير" إلى أهمية الصراع الطبقي ودوره في تحريك التاريخ بالنسبة إلى فلسفة ماركس ولكنه لم يتجاهل طبيعة هذا الصراع تفادياً للوقوع في الإنسية. إن الصراع كما يقول متهمكما وساخر من "جون لويس".

لا يقع في السماء ولا في الملاعب الرياضية وإنما صراع متجذر (Ancrée) في نمط الإنتاج يقع في البنية التحتية التي هي من طبيعة مادية.⁽²⁴⁾

وقد استند "التوسير" في تأكيد صحة موقفه من فلسفة ماركس بشأن الصراع الطبقي إلى فلسفة ماركس نفسها. لم ينطلق "ماركس" - حسب

التوسير- في تأسيس فلسفته من الإنسان لأنه مفهوم يعبر تعبيرا صريحا عن البرجوازية وإنما استند إلى الحقيقة الاجتماعية المحددة اقتصاديا. غير أن هذا الطرح لا يعني أن "ماركس" قد ألغى وجود الأفراد في المجتمع وإنما ألغى دورهم فيه فأصبح المجتمع يتحدد بالبنى ولا يتحدد بالأفراد⁽²⁵⁾.

الأطروحة الثالثة :

أطروحة جون لويس: " لا يعرف الإنسان إلا ما يصنع ".

أطروحة الماركسية اللينينية : " لا يعرف إلا ما هو موجود". (On Ne

Connait Que Ce Qui Est

عمد "التوسير" في الأطروحة الثالثة إلى مقابلة كلمة " يصنع " بكلمة " موجود " ليظهر أن أطروحة الفلسفة الماركسية اللينينية تعطي أسبقية الوجود على الفكر في حين ركزت أطروحة "جون لويس" على أسبقية الفكر على الوجود. وهذا الطرح الماركسي اللينيني حسب "التوسير" طرح مادي، موضوعي في آن واحد، وذلك لأن طبيعة ما هو موجود طبيعة مادية ووجوده وجود موضوعي سابق على الذات⁽²⁶⁾ غير أن تأكيد أسبقية الوجود على الفكر لا يعني التكرار لدور الفكر وإنما هي محاولة قام "التوسير" بها كما فعل قبله ماركس ولينين للارتقاء بالأطروحات الجدلية إلى الأطروحات المادية لتفادي الوقوع في الذاتية التي تعني إخضاع المعرفة إلى الذات وإلى الوعي والتي تعود إلى الطرح الإنسي.

واصل "التوسير" نقد الموقف الإنسي لجون لويس، وقد استمد حجته هذه المرة من الصياغة اللغوية للأطروحة الماركسية اللينينية التي تنص على "لا يعرف إلا ما هو موجود". لقد ورد الفعل "يعرف" في هذه الجملة على صيغة المبني للمجهول بهدف إلغاء دور الذات في صيرورة التاريخ الذي تسييره البنى وليس الإنسان .

خلص التوسير في نهاية نقده للقراءات الإنسية إلى تأكيد جهل الفلاسفة الشيوعيين بفلسفة ماركس الأمر الذي ترتب عليه وجود أشكال متعددة من الإنسيات المتضاربة في موقفها. ويعبر هذا التضارب حسب "التوسير" عن هشاشة

وضعف حججها. بناء على هذا دعا "التوسير" إلى العمل بغية إنضاج فلسفة ماركس حتى يتسنى - كما يقول - " الخروج من الأشكال الكاركتورية التي فرضت علينا" (27).

وما هو مفيد أن يذكر في هذا الإطار أن رفض "التوسير" للفكر الإنسي يندرج ضمن الاتجاه السائد في الفكر المعاصر، إذ عرف الفكر وبصفة خاصة في ألماني ثم فرنسا ابتداء من الستينات ازدهار ملحوظا للتيارات المنتقدة للنزعة الإنسية وكان القاسم المشترك بين التيارات المنتقدة لفلسفة الذات هو نقد وتفكيك الإنسان وعالمه الثقافي. لقد رددت تلك المواقف الفلسفية وأعلنت أن الإنسان كما تصورناه لحد الآن لم يعد له وجود، أو هو على وشك الاختفاء. لقد أضحى التصور عن الإنسان كذات وعقل وإرادة وقدرة على الخلق والإبداع ضمن فلسفة موت الإنسان ومضة وبريقا خاطفا، إنه مجرد أسير لوضعيته المشتركة بحتميات متعددة. وضمن هذه الرؤية لم يعد بالإمكان الاستمرار في تصديق تصورات الإنسان عن نفسه ومواصلة الحديث عنه ككائن قادر على القيام بمبادرات حرة وواعية.

الهوامش

- (1) عبد الرزاق الدواي: المصطلح في الفلسفة والعلوم الإنسانية (الرباط منشورات كلية الآداب والأدب والعلوم الإنسانية) ص168
- (2) هاشم صالح : مدخل إلى التوير الأوروبي، ط1 (دار الطبيعة بيروت 2005) ص 80.
- (3) بد الرزاق الدواي: المصطلح في الفلسفة والعلوم الإنسانية ، ص 168.
- (4) أندري لالاند ، الموسوعة الفلسفية ، تعريب خليل أحمد خليل، (بيروت منشورات عويدات نبيروت) المادة الإنسان، ص559.
- (5) سهيل النقش : دراسات لا إنسانية من لويس ألتوسير إلى جورج كنفلام (بيروت المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر) ص
- (6) Louis Althusser : Pour Marx ، p 19
- (7) -) ايفان فرولوف: "الإنسان مقياس كل الأشياء"، دراسات اشتراكية، العدد22 ، ديسمبر1998
- (8) -) يافان فرولوف: "الإنسان مقياس كل الأشياء" دراسات اشتراكية ص15
- (9) -) ايفان فرولوف: "الإنسان مقياس كل الأشياء" دراسات اشتراكية ص 13. Louis Pour Marx Althusser p 227
- (10) Ibid ، p 227
- (11) Jorge Sumprun: Marxisme Et Humanisme La Nouvelle Critique n0 mars 124 ، 1965 ، p 24.
- (12) Ibid
- (13) Ibid ، p 27- 28
- (14) -) فيلسوف بريطاني John Lewis جون لويس
- (15) -) مجلة الحزب الشيوعي البريطاني. Marxism Today الماركسية اليوم

(16)- Louis Althusser : Pour Marx p 25.

(17)-ibid.

(18)- تعذر علينا الحصول على أطروحات جون لويس لهذا اكتفينا باستخراج هذه
الأطروحات كما ذكرها التوسير في كتابها الرد على جون لويس

(19) Louis Althusser : Réponse à John Lewis (paris 1973) p 16

(20) Louis Althusser: Réponse a John Lewis p 16-17

(21) ibid , p 24

(22)- البيان الشيوعي هو الوثيقة الأرضية لبرنامج الشيوعية العلمية تشرح فيها أسس
الفلسفة الماركسية وتعمل على تطبيقها.

(23) Louis Althusser : Réponse a John Lewis p 30

(24) Ibid ، p 30

(25) Louis Althusser : Réponse a John Lewis p 34

(26) Ibid ، p 34

(27)Louis Althusser:Pour Marx ، p 13